# الرجوع الى ميتوزيلا

## لبرنارد شو

### فى البداية

ميتوزيلا بطريق يقال إنه عمر طويلا حتى نيف على التسعمائة بنصف قرن أو يزيد ، فالرجوع إليه هو الرجوع بالانسان إلى الحياة الطويلة ، والحكمة فى ذلك هى ما تدور عليه القصة مما سيعلمه القارىء بعد حين ، والمؤلف يرمى إلى تأريخ التطور الخالق creative evolution فبدأ بقصة آدم وحواء واستغل تلك الأمنية الأبدية « حجر الفلاسفة » الذى يغلب الناس على غائلة الموت. والقصة فوق ذلك معرض تمثل فيه نقائص الحياة المتمدينة ، وخاصة الجانب السياسى منها.

* * *

نحن فى ناحية من جنة عدن ، يجلس فيها آدم وحواء ، وعلى مقربة منهما تسكن حية مختفية الرأس ، وأيل مكسور الرقبة ؛ وقد جذب الأيل أنظار آدم وحواء بسكونه المستمر ومنظره المقبض ، مما أثار فى نفس الرجل الخوف أن تزل قدمه مرة فتندك رقبته وينقطع حبل حياته ، وتحس حواء ببعض ما يجد ، ويشفق كل منهما أن يهجره رفيقه تلك الهجرة الأبدية ، ويتركه لوحدة ليس فيها أنيس ، ولكن حواء تعجب من خوف آدم هذا لأنه يتردد دائماً بين الضجر من الخلود والخوف من الموت ! ويهم آدم بالأيل ويذهب به بعيداً ليرمى به فى النهر ، وفى أثناء غيابه تتحرك الحية وتتحدث إلى حواء بلغتها ، لأن طول إصغائها إلى حوارها مع آدم أفضى بها إلى تعلم اللغة التى يتكلمان بها ، وهى تحدثها لما ترى من شدة خوفها من الموت ، وتكلمها عن دواء الموت وهو الميلاد وبعث الحياة من جديد ، وتضرب لها مثلا بنفسها فهى تلد حيات جدد ، وهذا ما فعلته ليليث عند ما آلمتها فكرة الموت فولدت آدم وحواء ! ، والخلق ليس محالا ، فقط يجب أن ترغب وتتخيل ثم تريد فتخلق ، ولم لا ؟ ألم تكن حواء عاجزة عن تسلق الأشجار ؟ ألم ترغب وتتخيل وتريد فخلقت من العضلات والاستعدادات ما مكنها من تسلق الأشجار ؟ هكذا الخلق ممارسة واجتهاد . . . ولا يجوز لحواء أن تتردد إذا كانت تريد أن تتغلب على الموت ورعبه . وإذا ما رجع آدم هرعت إليه حواء وأفضت إليه بكل ما دار بينها وبين الحية ، ويسر الرجل لذلك ، إلا أن خوفا يداخله أن يقتله من سوف يلد من أحياء ، ولكنه يجد فى

نفسه إطمئناناً غريباً، ويخيل إليه أن صوتاً يوحى إليه بأن لن يصيبه أذى ممن سيلد، ويصرح لحواء بأنه نفس الصوت الذى يبغضه فى فكرة قتلها، وهنا تقول له :

حواء « إن الصوت يهمس لى بقتلك ومع ذلك فلا أرغب أن تموت قبلى ، ولا حاجة لى بصوت يأمرنى بذلك » . فيقول آدم : « كلا... ذلك بين من غير صوت ما، لأن هنالك شيئاً يربطنا ببعضنا . . شيء ليس له كلمة . . . . »

الحية « الحب . . . الحب . . . الحب »

آدم « إنها الكلمة قصيرة لمثل هذا الشيء الطويل ؟ »

الحية « الحب قد يكون كلمة طويلة لشيء قصير . . . ولكنه إذا كان قصيراً كان حلواً » .

آدم « إنك تحيرينى، كان اضطرابى القديم ثقيلا ، ولكنه كان بسيطاً ، وهذه البدائع التى توعدين قد تقلب كيانى قبل أن تمنحنى هدية الموت ، كنت أنوء بحمل المخلوق الخالد، ولكن لم ألك مهتاج العقل، وإذا كنت لم أعلم أنى أحب حواء فلم أكن أعرف كذلك أنها يمكن أن تزهد فى حبى وتحب آدم آخر ، أو أن ترغب فى موتى . . . هل تعرفين اسما لهذه الحالة ؟ » .

الحية « الغيرة . . . الغيرة . . . الغيرة »

آدم « كيف لا أثابر على الهم مادام المستقبل أضحى غير مؤكد ؟ إن أى شيء خير من الشك ، فالحياة أصبحت غير يقينية والحب غير يقينى ، فهل لديك كلمة لهذا الشقاء الجديد ؟ »

الحية « الخوف . . . الخوف . . . الخوف » . فيقول آدم : « هل عندك علاج له ؟ » . فتقول « نعم . الأمل . . . الأمل . . . الأمل » فيسأل « وما الأمل ؟ » ، فتقول : « مادمت لا تعرف المستقبل فإنك لا تعرف أنه لن يكون أسعد من الماضى . . هذا هو الأمل » .

آدم « إنه لا يعزينى أن الخوف عندى أقوى من الأمل ، ينبغى أن أظفر باليقين . . هبيه لى أو أقتلك إذا ماظفرت بك نائمة » فتقول حواء « حيتى الجميلة ! . . كلا ! . . كيف تفكر فى مثل هذا الأمر المروع ؟ » فتقول الحية ( لآدم ) : « قيد المستقبل بإرادتك وانذر نذراً » ، فيسأل آدم « وما النذر ؟ » فتجيب الحية « اختر يوماً لموتك، واعزم أن تموت فى ذلك اليوم، فلا يبقى الموت غير يقينى ، ودع حواء تنذر أن تحبك حتى تموت فلا يبقى الحب بين مخالب الشك »

آدم « هذا جميل » ، فتستدرك حواء « ولكنه سوف يقضى على الأمل ! » فيقول آدم ( مغضباً ) « صه . . يا امرأة . . إن الأمل شرير والسعادة شريرة . . اليقين هو السعادة »

الحية « وما الشرير ؟ » فيجيبها آدم : « كل ما أخاف أن أفعل شريراً ، اصغ إلى ياحواء، واصغ أيتها الحية واشهدا نذرى : سأعيش ألف دورة فلكية » .

الحية « ألف سنة ؟ ألف سنة ؟ » ، فيردد آدم « نعم سأعيش ألف ولن سنة أبقى بعد ذلك، ولسوف

موت وأفوز بالراحة ، ولسوف أحب حواء كل هذا الزمن دون سواها»، فتقول حواء « وإذا وفى آدم بنذره فلن أحب رجلا سواه ».

وتهتف الحية أنهما اخترعا الزواج ، ثم تنتحى بحواء ناحية لتفضى إليها بسر هذا الزواج ، وتهمس فى أذنها بكلام فيتهلل وجهها فرحاً، ثم يعتريه الامتعاض فتخفيه بين يديها .

* * *

تقضت قرون ، وقد هبط آدم من عدن وعاش مع حواء ،وها هوذا يحفر وهاهى ذى تغزل، ولم يظلا كما كانا حافظين لثوب الفتوة جديداً ، وإنما خضعا لسلطان الزمان الذى سلبهما رونق الشباب ومكن منهما الكبر . ولأول مرة يظهر بجانبهما آدمى جديد هو هابيل ، وهو متلفع برداء الحرب مزهو بغرور المحاربين ، ولا يكلفنا أى جهد أن نلحظ مابين الأب والابن من سوء تفاهم وغضب ظاهر ؛ وذنب الابن أنه قتل أخاه قابيل ، ولكنه يعتذر عن نفسه بأن أخاه هو الذى اخترع النار والقتل وأنه قضى عليه بما كان يقضى به على غيره ، وهو على كل حال لا يبتئس لذلك بل يفخر به، لأن حياته فى نظره أحفل بمعانى العظمة من حياة أبيه . وماذا فى حياة آدم غير الحفر ؟وهو يستطيع أن يفخر بالحفر إن جاز له أن يفخر بأنه خلق رجلا ! أما هو فيستطيع أن يزهو لأنه القاتل الأول،وحياة القاتل حياة قوة وحرية!

ولا يروق حواء حديث ابنها، وتخشى على آدم أن يتأثر به ، فتنحى على ابنها باللوم أن يفخر بما لا يستحق الفخر أو الثناء، وتنكر عليه أن يزعم لنفسه ما ليس لها من الحرية والقوة فهو أسير امرأته ، يساق إلى مقاتلة الحيوان بوحى صامت منها ، لأنه يذوق السعادة فى تلك الساعة التى ترمى بصيده تحت قدميها مزهواً أمامها بقوته وجبروته ،وهو بعد هذا وذاك ليس إلا مخرباً ، ولو أنه ذاق العذاب مثلها والجهد فى سبيل الإنتاج والبناء ما استقام منطقه بمثل هذا التفكير الطائش . ولكن الفتى لا يهتز لكلام أمه ومايزال يصر على إيثار أسلوب حياته والزراية بحياة أبيه . فإذا نظر أبوه إلى الأرض وأقر بأنها أصل الحياة تطلع هو إلى السماء وقال إن الأرض أصل الأمراض كذلك. وتشتد ثورته على الأرض وما فيها من طعام وتناسل، ويتساءل: إذا كان هذا هو كل ما للإنسان، فما الفرق بينه وبين الدب؟ويشتد سخط الأب ويتغالى الابن فى كبريائه حتى تهددهما بالخطر مما يدعو حواء إلى التدخل فيما بينهما لتهدىء من ثائرتهما وتلطف من حرارتهما، حتى إذا رأتهما جنحا إلى السكون اعترفت لهما بأنها غير راضية عن حياة آدم، وغير راضية عن حياة هابيل، تلك تضجرها مما فيها من لون واحد وحركة واحدة، وهذه تنفرها مما فيها من وحشية وخراب. وإنما الذى يعزيها ويهون عليها هو الأمل فى المستقبل، وقد بدأت تتلمس بوادر حسنة تبشر بالسعادة وهى التى تتحقق على أيدى بعض أبنائها ، فمنهم من يسرح بنظره بين الكواكب يطلق عليها الأسماء ويلاحظ حركاتها ، ومنهم من صنع لها هذا المغزل العجيب، ومنهم من يهيم فى الغابة صائحاً

إلى « الصوت » يستلهمه أموراً يهدى بها إخوانه ... وهؤلاء أملها في المستقبل الذين يبنون ويبتكرون من غير أن تسحرهم السكينة ولا تغرر بهم حمية القتال . والظاهر أن هابيل لا يفهم هذا الكلام فيأخذ عدده ويخرج، ويستأنف آدم الحفر وتجلس هي تغزل وهي تقول :

« الإنسان لا يحتاج دائماً أن يعيش بالخبز فقط ، يوجد شيء آخر لا ندرى إلى الآن ما هو، ولكنا سنكشف عنه في يوم من الأيام ، هنالك لا يبقى محل للحفر أو الغزل أو النزاع أو القتال »

***

نحن الآن بعد الحرب الكبرى ، في غرفة ببيت فرانكلن بارناباس – وهو رجل من رجال الدين سابقاً – وأخيه كونراد بارناباس وهو عالم بيولوجي، والأخوان من الرجال الموهوبين الذين يعيشون للإنسانية ، وهما متفقان على أن الحياة البشرية قصيرة بحيث لا تحقق للإنسان ما يطلب من الحكمة والعرفان؛ ولقد هجر فرانكلن الكنيسة لما رأى أن بينه وبين الحكمة مائة وخمسين عاما . أما كونراد فيتمنى لو يعمر تسعمائة وستين عاما كأبطريق ميتوزيلا ليبلغ مرتبة العلم الحقيقي.

وبينما نستمع لحوارهما يدخل القس هاسلام وتتبعه ابنة خطيبته فرانكلن سافى ، ولا يكاد يستقر بهما المقام حتى يدخل شخص ثالث هو مستر بيرج وهو من الشخصيات السياسية البارزة وحسبك دلالة على سمو قدره أنه ترأس الوزارة البريطانية أثناء الحرب، وأنه الآن زعيم المعارضة وهو لم يحضر لخالص الزيارة ولكنه يرمى إلى غرض سياسي ؛ ذلك أنه علم أن مستر فرانكلن ينوى القيام برحلة، فهل تكون الرحلة لغرض سياسي ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يكون الأستاذ ممن يزكونه أم ممن يناهضونه ؟ لأن الحالة حرجة والشعب غير راض عن الوزارة القائمة التي لا تمثل أحداً فيه ، ولكن فرانكلن لا ينوى القيام بدعاية سياسية مطلقاً وهو لم يفكر في السياسة أبداً ، لأنها – على ما هي عليه – لا تستطيع أن تجذبه إليها ؛ وهو يصرح لمستر بيرج عن رأيه في أساليبهم وانتخاباتهم التي يراها مهازل مضحكة لا تغنى شيئاً .

وأثناء الحديث تدخل الخادم معلنة قدوم مستر لابن ، وهو رئيس بيرج القديم ورئيس الوزارة قبل الحرب ، وبين الرجلين منافسة حادة وخصومة مكتومة واحتقار متبادل. ويتحدث الجميع في السياسة،وهل في أدمغة رجال السياسة موضوع عدا السياسة ؟ كأنما الدنيا لم تخلق إلا لتكون ميداناً لانتخاباتهم،وكأنما الناس لا يوجدون إلا لتزكيتهم وتسليمهم مقاليد الحكم ؛ وأخيراً تضيق سافى بالحديث وتسخط عليه،وتقترح على أبيها وعمها أن يبلغا السياسيين إنجيلهما الجديد.

ويراع الرجلان ظناً منهما أن الشقيقين ينويان تكوين حزب سياسي جديد يزحم عليهما الميدان، ولكن كونراد يؤكد لهما أن فكرة كهذه لا تمكن أن تخالطها نفساً . فما عسى أن يكون هذا الإنجيل إذاً ؟ هنا يقول فرانكلين « برنامجنا هو أن تمتد نهاية الحياة الإنسانية إلى ثلثمائة عام »، وتقول سافى : « إن نداءنا في الانتخابات هو الرجوع إلى ميتوزيلا » ، ولكن ما شأن ذلك والسياسة

هنالك يأخذ فرانكلين فى شرح كتابه أو إنجيله قائلاً إن رجال السياسة يموتون ولما يبلغوا سن الرشد، يموتون وقبس من النور يوشك أن يشرق على نفوسهم المظلمة، فيجب أن تمتد بهم الحياة ليبلغوا الحكمة ويفيدوا من تجارب القرون! ولما يسمع مستر لابن هذا الكلام يوافق عليه، ولكنه لا يرى فائدة عملية من الخوض فيه، فقد نستطيع أن نمسك الطيور بأيدينا لو تمطبق سماء على الأرض، ويسأل كونراد: هل امتدى إلى أكسير الحياة؟ هل يقدم لها طعاماً أو سقيها شراباً؟ فيأسف العالم لأنه يحدثهما فى العلم فيقبلان عليه بأفواه مفتوحة وعيون مغمضة، ولكن لابن لا يثق بالعلم كثيراً ويستشهد بخطأ العلماء المتكرر، وربما كانت ثقته بالشعر أعظم، ويجد من فرانكلين موافقة على كلامه، ويضرب هذا مثلا على صدق الشعر بأسطورة عدن، ثم يقول «حسناً، أنت تذكر أنه فى جنة عدن لم يكن آدم وحواء خاضعين للموت، وأن الموت الطبيعى - كما نسميه الآن - لم يكن جزءاً من الحياة وإنما هو اختراع متأخر عليها ومنفصل تماماً منها»، ولما يعترض لابن بأن الموت غير الطبيعى كان موجوداً يستطرد فرانكلين قائلاً: «نعم، كان آدم وحواء معلقين بين قدرين مخيفين: انقراض النوع من الموت غير الطبيعى، والأمل فى حياة أبدية، ولما لم يطيقا واحداً منهما قررا أن يكتفيا بحياة قصيرة أمدها ألف عام ومن ثم يعهدان بعملها إلى زوج جديد، فاخترعا الميلاد الطبيعى والموت الطبيعى اللذين هما من الظاهر استمرار الحياة من غير أن يرزح مخلوق تحت وطأة الخلود».

فالحياة خالدة ولو فى الأفراد، ونحن صورها المتكررة. وهى تسير فى سبيل القوة والعرفان غير المحدودين، واللذين يجب أن يظلا غير محدودين ليسوغا لنا الحياة. ويسأل لابن عن أصل الخطيئة، فيجيبه فرانكلين قائلا إن آدم كان يعيش فى عدن آمناً من الموت فكانت بيته الأبدى، وكان لذلك يوجه جل عنايته إلى المحافظة عليها والاهتمام بشأنها؛ فلما اخترع الموت الطبيعى وأضحى مستأجراً للبيت لا صاحبه فترت عنايته به، وتجرأ على ضرب حواء بعد أن كان يشفق أن يصيبها بسوء فيبقى وحيداً لا أنيس له، ولما جاء أبناؤه ساروا على سنته وزادوا عليها. فكان القتل وكان الصراع وكان الشقاء... هذه هى قصة عدن وتلك أن تسميها التطور الخالق إن كنت من المغرمين بالأسماء العلمية؛ وليس التطور ظاهرة عارضة مخلعة قوة، نحن تجربة فى يدها. فإن يشرنا بنجاح أبقتنا، وإن رأت أننا تجربة فاشلة قضت علينا وابتدعت غيرنا.. وكم من مخلوقات انقرضت ولم تترك إلا آثارها على الأحجار القديمة.

كل هذا طيب ولكن كيف السبيل إلى العيش ثلثمائة عام؟ هل هنالك أكسير أو نحوه؟ الحق انه لا يوجد أكسير ولا غيره، وكل ما فى الأمر - كما يقول فرانكلين - أننا نستطيع أن نبث فى عقول الناس أنه لا يوجد شىء يمنع من ذلك - طول العمر - إلا إرادتهم أن يموتوا قبل أن يشارف عملهم التمام؛ وإلا جهلهم بالعمل العظيم المتروك لهم أمر القيام به.

ويخيب أمل لابن وبيرج، لأن عقليتهما لا تقتنع إلا بالأمور المادية، أما الرغبة والاقتناع النفسى فأمر آخر! أليس كلنا نرغب أن نعمر ثلثمائة عام ومع ذلك لا يتاح لنا أن نتجاوز العمر المحدود؟ ولكن كونراد لا يرى ذلك وهو يقول مدللا «كل يود لو يحصل على مليون جنيه فلماذا لا يحصل عليها؟ لأن الذى يتمنى أن يكون مليونيرا لا يحرص على توفير ستة بنسات ولو هدده الموت جوعاً وانتصب محلقاً فى وجهه. والذين يرغبون أن يخلدوا لا يحاولون أن يقلعوا عن شرب البيرة أو تدخين التبغ، وهم يعتقدون أن الممتنع عن المسكرات والتدخين يعيش أجلا أطول، مثل هذه الرغبة لا تتجاوز عتبة الإرادة، انظر إليهم كما يعتقدون أنه يجب عليهم أن يعملوا».

لكن لابن عسير عليه أن يفهم هذا الكلام، وهو يائس من أن يطول عمره، وبرج يعد بأن يجعل من هذه المسألة أساساً لمعركة انتخابية، وهاسلام لا يصدق شيئاً من هذا، حتى خطيبته سافى تشك فيه شكاً قويا لما ترى أنه من المحتمل أن تعمر الخادم وترجع إلى ميتوزيلا. أما الشقيقان فلا يخالطهما شك فى الموضوع. لكن هل يعمر أحد منهما أم لا؟ هذا مالا يعلمه أحد.

***

نحن فى عام ٢١٦٠ م فى انجلترا أيضاً وفى غرفة رئيس الوزارة وهو يجمع فى هيئته مابين مستر بيرج ومستر لابن، ونحن نحس تقدماً فى الحضارة الميكانيكية، فالوزير يتحدث إلى وزيرة الصحة بالتليفون وهى على بعد أميال عديدة، ويستطيع أن يراها ويرى المكان الذى تحل فيه كأنها على بعد أشبار منه، ويأخذنا عجب شديد أن نرى أزمة المصالح الحكومية فى أيدى الأجانب، فوزيرة الصحة زنجية من إفريقية، ورئيس السكرتيرين الدائم من الصين «كونفوشيوس»، وسبب ذلك كما يقول كونفوشيوس أن الإنجليز بعد حرب طاحنة اقتنعوا بأنهم ليسوا أهلا للحكم، أنهم فسلموا أمورهم للغرباء وانتظمت بذلك آلة الحكومة وتفرغت للتفكير فى السياسة العليا.

يدخل على الرئيس موظف إنجليزى كبير الشبه بكونراد بارناباس، يبدو عليه الاضطراب وتصدر عنه حركات عنيفة، وكان الرئيس قد أرسله بدلا منه ليقابل مخترعاً أمريكياً اخترع آلة للتنفس تحت الماء، ورأت الحكومة أن تعرض على الأمريكى شريطاً سينمائياً يمثل العظماء الذين ماتوا غرقاً. وشاهد بارناباس من هؤلاء العظماء المنكوبين: الأسقف ستيكيت والوزير ديكنسن والجنرال بالبيوى، وتحقق منهم بعين فاحصة، ولشد ما كانت دهشته عظيمة عند ما تبين له أن هؤلاء الأشخاص ورئيس أساقفة يورك الحالى شخص واحد بعينه، نعم ليس الذى بينهم مشابهة قوية، وإنما هى ذاتية واحدة، ويدهش لحديث الموظف رئيس الوزراء ورئيس السكرتيرين وتزيد دهشتهم عند ما يدخل عليهم رئيس أساقفة يورك. وهو كبير الشبه جداً بالقس هاسلام خطيب سافى الذى عرفناه من قرنين، ولا يستقر به المقام حتى يحمل عليه بارناباس متهما إياه بالسرقة، لأنه ما زال يقبض من مال الدولة من بعد فوات السن القانونية للعمل، وهو حوالى الأربعين، ويرى الأسقف نفسه مطالباً بتبديد الغيوم التى تكتنف الأمر، فيقص عليهم قصة

يدعى بطولتها فتكاد تصعقهم من شدة ما تدهشهم... يقول إنه تزوج فى عام ١٩٢٤ من ابنة فرنكلين الذى ينحدر بارناباس الحالى من أسرته ، وإنه قرأ كتاباً لعم زوجه يبشر فيه للإنسان بحياة طولها ثلثمائة عام ، لأن حياته الطبيعية لا تؤهله للقيام بواجبه نحو المدينة ، وإنه لم يستطع أن يصدق هذه الدعوى الخارقة ، وعاش مع زوجه وتقضت الأيام سراعا ووضح فعلها على وجه زوجه التى مضى من عمرها لخيره وضحاه وطلع أصيله ، وهو باق على حال شبابه حتى لاحظت عليه ذلك امرأته وضاحكته قائلة إنه سيعمر ثلثمائة عام ، ومضت الأيام وماتت زوجه ولم يتغير منه شىء ؛ فوقر فى نفسه أنه سيعمر حقاً ، وكان كلما عاش عمراً وعرفت له شخصية تخلص منها وتقمص شخصية جديدة ، وكانت السبيل إلى ذلك أن يذهب إلى شاطىء البحر ويترك ملابسه ويرحل إلى بلد شاحط فيظن الناس أنه غرق ، وبهذه الطريقة كان أسقفاً مرات ، وتقلد منصب الرئاسة مرة وترأس الجيش مرة ، وهو الآن بالغ من العمر قرنين ونصف قرن !! فإذا انتهى هاسلام من حكايته ، استسلم كل من الحاضرين لعواطف شتى ؛ فبارناباس لا يصدق ، وبيرج لابن يشك شكاً قويا ، وكونفوشيوس يفكر ويفكر لعله يهتدى إلى نور اليقين وسط هذا الظلام الحالك.

وبينهم على تلك الحال من التكذيب والشك تدخل وزيرة لمقابلة رئيس الوزراء فى أمر من أمور الدولة ، وهى امرأة مهيبة — رغم حداثة تكسوها — ولا تكاد تلتقى عيناها بعينى الأسقف هاسلام حتى تعتريها دهشة وتعتريه دهشة مثلها ، ويصرح لها بأنه يتذكر أنه رآها فى مكان وزمان تأبى الذاكرة أن تدله عليهما ، وكل ما يذكره أنها كانت تفتح له باباً وتنحنى له ، وتعجب الوزيرة لأنها هى الأخرى يخيل إليها أنها كانت تستقبله حقاً وتفتح له بابا كذلك ، ولكن أين ومتى ؟.

ويسأل كونفوشيوس الأسقف : هل يعرف أحداً غيره امتد به العمر إلى هذا الحد ؟ ولكن الآخر لا يدرى من هذا الأمر شيئاً ، وقد أخفاه عن العالمين لعلمه أن الناس كالحيوانات يؤذون من ليس على شاكلتهم ؛ وهنا تتذكر الوزيرة الأسقف وتعترف له بأنها خادم خطيبته سافى التى كانت تستقبله فى بيت بارناباس عام ١٩٢٤ ! ، وتقص عليه كيف أنها قرأت كتاب بارناباس وكيف تأثرت به تأثراً لا يتاح إلا للجاهلات ؛ وقد تزوجت ولاقت حياة عسيرة شاقة لم تذق فيها حلاوة الحياة ولا الراحة ثم مات زوجها ؛ ويدهشها أن تبقى بعده — وبعد فوات تلك الأعوام — محافظة على شبابها ومميعة صباها ؛ ثم وقفت على ما هنالك من أنها ستعمر كما قرأت فى كتاب بارناباس ، وقد راعها الأمر لأنها لم تحتمل الحياة وهى قصيرة ، فكيف تصبر عليها ثلثمائة عام ؟ ولكن عزاها وشدد عزيمتها تقدم مطرد سائر الحياة السياسية والاجتماعية مما جعلها تحيا لنفسها حتى تبوأت مقعداً فى الوزارة !.

ويلقى بيرج لابن عليها نظرات قلقة ، وقد أذهلته الحقيقة ويتجرأ فيسألها : لم لا تتزوج ؟ وتجيبه بأنها تزوجت من زمن فناناً فى الثمانين وعاشرته زمنا ؛ ومات الرجل ولما يبدع إبداعاً حقا ، مات فى اللحظة التى تفتحت له فيها أبواب السماء ! فيسألها ثانياً : لم لا تتزوج مرة أخرى

وهى فى هذه السن ؟ ألأنها لاترضى أن تعبث بطفولة واحد مثله فى الثمانين ، وهل تراه يرضى وهو فى هذه السن أن يتزوج من فتاة فى الثانية عشرة ؟ ويدور بين الأسقف والوزيرة حديث رائع عن الحياة الانجليزية يتناولانها فيه بالنقد المر ، فالانجليز يجزعون أمام الأعمال الهامة ويتركونها للزنوج والصينيين ، ولعله لا يكون بعيداً أن يأتى يوم يصبح الانجليز فيه خدما فى بلادهم ! ويلاحظان أن العقول الصفراء والسوداء والسمراء هى التى تبتدع الآن وتبتكر كما كانت تفعل قديما العقول الاسكوتلاندية والألمانية واليهودية والايطالية ، وحسب الانجليز الآن أن يلعبوا الجولف وغيره من الألعاب الصبيانية ؛ وطبيعى أن ينجذب كل من الأسقف والوزيرة إلى بعضهما ، ويهمان بالخروج وفى نية كل منهما أن يتزوج من صاحبه ، ويحدس بارناباس هذه النية فيعترضهما ، ولكنهما يخرجان رغما منه ؛ ويقترح هو أن يقتلا ولو دعا الأمر إلى سن تشريع تحرم فيه الحياة على المعمرين ... أليس من الممكن أن يلدا أطفالا مثلهما وأن ينتشر هذا النسل فيضحون هم أطفالا بجانبهم ؟ أليس من المحتمل أن تمتد قاماتهم بحيث تناسب أعمارهم فيمسون بجانبهم أقزاماً ؟

ويستمع كونفوشيوس إلى حديث بارناباس ولكنه لايقتنع به ولا يرى فيه وجهاً للحق ، فيحتد بارناباس ويخرج غاضباً ، ويقبل الصينى على رئيس الوزراء محدثاً قائلا : إن الانجليز يستطيعون أن يبلغوا الحكمة لو بلغوا سن الرشد ولا سبيل إلى ذلك مادام وا يموتون أطفالا ، ويسخر من ادعائهم أنهم وجدوا ليكونوا السادة ، وليسيطروا على قيادة الشعوب ، ويشبهه بادعاء الطفل الغرير وتيهه على اللعبة الخشبية التى يعبث بها ، ويتساءل الرجل : هل يوجد ياترى أناس آخرون على شاكلة الأسقف والوزيرة ؟ من يدرى ؟ بل من يدرى أنهما ليسا من هؤلاء المعمرين ؟

وبينما هما يتحدثان تدعو وزيرة الصحة الزنجية رئيس الوزراء للنزهة يهبط فيها بالباراشوت فى خليج فنشجورد ، فيتردد على غير عادته إذا دعته هذه المرأة . كانت الحياة قصيرة زائلة وكان يستعين بها ، ولا يعدل بساعة متعة شيئاً فى الوجود ؛ ولكنه قد يعمر مع المعمرين وقد تطول حياته فكيف يجازف بكنز ثمين ؟ وهب أنه نجا من الباراشوت ؛ أفليس محتملا أن يصيبه روماتزم من برودة البحر ؟ وكيف يحتمل الروماتزم ثلثمائة عام ؟ كلا .. كلا .. خير من كل هذا أن يرفض الدعوة ، وقد كان واستهان هذه المرة بغضب المرأة الزنجية ؛ ويسر كونفوشيوس لهذه النهاية أن تغلبت فيه روح الحكمة على غريزة اللهو والرياضة وأن أصبح جباناً حساساً حكيما ! ! ! ولا يحفل بيرجلابن بهذه الأوصاف ، فليكن جباناً أو غير جبان ، أمر واحد يهمه ويكترث له وهو السلام مادام من الجائز أن يعيش ثلثمائة عام ! .

( البقية فى العدد المقبل ) نجيب محفوظ